الفتوحات الإسلامية

5

القادسية



بقلم
عبد الحميد عبد المقصود

رسوم
إبراهيم سمرة

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

فى عَهْدِ الْخَلِيفَةِ (عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ) ثَالِثِ الْخُلفاءِ الرَّاشِدِين ، ازدَهَرت الفُتوحاتُ الإِسْلامِيةُ ، و أَصْبحَ لِلْعَرَبِ والْمُسْلمينَ دولةٌ قَوِيَّةٌ دَانتْ لها كلُّ الْقُوَى فى الْمَشْرقِ والْمَغْربِ ، لِتَتَّحِدَ شُعُوبهَا تَحْتَ رَايةِ الإِسْلامِ ، فَتنْعمَ بعظَمَتِه وتَرْفُلَ فى نِعَمِ اللّهِ الَّتى تَفَضَّلَ بِهَا عَلَى مَنْ أَسْلَمَ واهتَدَى إِلَى نُورِ الْحَقِّ .





لَقَدْ كَانَتِ السَّنَةُ الْخَامِسَةُ عَشَرَ مِنَ الْهِجرَةِ هِيَ عَامُ الْقَادِسيَّةِ . . . أَكْبَرِ وَاقِعَةٍ تَارِيخيَّةٍ وأَكْثَرِ الْمَعَارِكِ أَثَرًا فِى مَسَارِ الْحَضَارَةِ الإِسلامِيَّةِ عَامَّةً .

فَبَعْدَ أَنْ انتَصَرَتْ جيوشُ المسلمينَ عَلَى جَيْشِ الرُّومِ فِى بَعضِ الْمَوَاقِع بالشَّامِ وأَصبحَ القضاءُ عَلَيهِمْ أَمرًا مَحْتُومًا ، أَمرَ الْخَلِيفَةُ (عمرُ بنُ الْخَطَّابِ) أَن



تَتَّجِهَ جيوشُ الْمُسْلمينَ إلى العِراقِ لِتُخلِّصَها مِنْ سُلطانِ الفُرْسِ ، وتقضي عَلَى كُلِّ أثرٍ لَهُمْ هُنَاكَ .

وَعَلَى رأْسِ جيشٍ بَلغَ ثَلاثينَ ألفًا أو أكثر سَارَ (سَعدُ ابنُ أبي وقَّاص) و (هَاشمُ بنُ عُتْبَةَ) و(القَعْقَاعُ بنُ عُمرَ) .

وعِندَ مَشَارِفِ العراقِ وَصلتْ وَصَايا الخليفةِ (عُمرَ بنِ الْخَطَّابِ) إلى(سعد بنِ أبي وقَّاص) بأن يَذْهبَ عَلَى الْفَورِ إلَى الْقَادِسيَّة ، فَهِيَ البابُ الرئيسيُّ لبلادِ فارس ،

وأَنْ يَضعَ قـوّاتهُ بيْنَ آخـرِ الْحُـدُودِ العَـربيّـةِ وأوّلِ الْحُدُودِ الفَارسيّةِ .

وللمزيدِ منَ التّشجيعِ والحثّ على الجهادِ أضَافَ (عُمَرُ) فى وَصاياه إلى (سعد) أنْ لايخافَ الأعدادَ الهَائلةَ لأعدَائِهِ ، ولا العُدّةَ الّتى يمتلكونَهَا ، فالإرَادَةُ الصّادِقةُ والإيمانُ العَميقُ هُمَا الْعُنصرانِ الرّئيسيّانِ





اللَّذانِ يَجِبُ أَنْ يَتحلَّى بِهِمَا كُلُّ قائِدٍ أو زَعيمٍ يتولَّى قِيادَةَ مَعْرَكَةٍ حَرْبِيَّةٍ ، أو غَزْوَةٍ كُبْرَى ، وبِدونِهِما لايُمْكِنُ أَن يَتَحَقَّقَ النَّجاحُ أو الانتصارُ .

وانْطَلَقت الجيوشُ العربيَّةُ صَوْبَ القَادِسيَّةِ يَحْدُوها الأَملُ ، ويعلُو وُجُوهَ قَادَتِها الإيمانُ والصِّدْقُ فى سَبيلِ رِسالةٍ مُقَدَّسةٍ هى رِسالةُ الإسلامِ .





وعِندَ (العُذَيْبِ) إحْدَى النِّقاطِ الَّتِى كَانَتْ قَدْ أَعَدَّتْها الجيوشُ العَرَبيَّةُ لتَكونَ نُقطةَ حِراسةٍ لها عَلَى الحدودِ الفَارِسيَّةِ ، تَمَرْكَزَتْ تِلكَ الجيوشُ لتستريحَ بعضَ الوقتِ من عناءِ الطَّريقِ الشاقِّ الطويلِ الَّذى سَلَكَتْهُ فى رِحْلَتِها ، وليتَّفِقَ الْجَميعُ عَلَى تفاصيلِ الْخُطَةِ الْحَربيَّةِ المُزْمَعِ تَنفيذِها .

وفى هَذِهِ الأَثناءِ لاحظَ (سعدُ بنُ أبى وقَّاص) أنْ

بالْمنطَقةِ أبراجًا للمُراقَبةِ ، وبين الحينِ والآخر تَظْهَرُ

بعضُ الرءوسِ دَاخلِهَا ثُمَّ تَخْتَفى ، وهُنَا قَرَّرَ (سَعدٌ) أنْ

يَقـتحمَ تلكَ الأَبراجَ ، فَدَخلتْ قـواتُ المسلمينَ

لتكتَشِفَ أنَّ مَنْ فعلَ كُلَّ هَذَا مَا هُو إلاَّ رَجلٌ واحدٌ

أَرَادَ أَنْ يتجسَّسَ عَلَى الْمُسْلمينَ ، ثُمَّ انْطَلقَ بَعْدَ ذَلِكَ

إلى الدَّاخلِ ليُخْبِرَ الفُرْسَ بِمَا شَاهَدهُ .

فاسْتَولَت الجيوشُ الإسلاميَّةُ عَلَى تِلكَ الأبراجِ ،

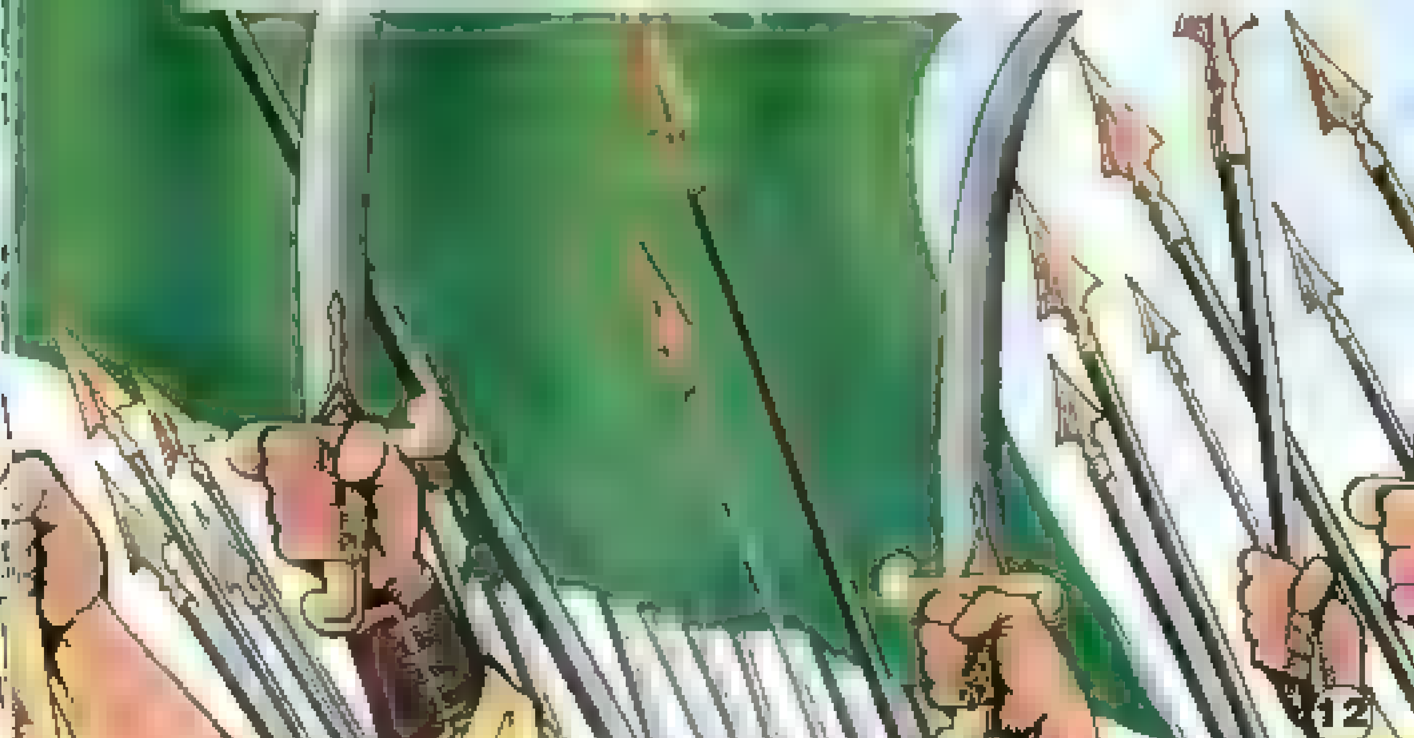




واستفادتْ مِمَّا بِهَا مِنْ رِمَاحٍ وسِهَامٍ وآلاتٍ حَرْبِيَّةٍ كَثِيرةٍ كَانَ الفُرْسُ يَحْتفِظُونَ بِهَا ثُمَّ تَرَكُوهَا .

وفى بِلادِ فَارسَ :

كَانَ المَلِكُ (يزْدِجرْد) مَلِكُ الفُرسِ يُتَابِعُ بِقَلَقٍ شَدِيدٍ تَحرُّكاتِ جيوشِ الْمُسلمِينَ نحوَ القَادِسيَّةِ . فَأَمَرَ بِإعدَادِ جَيْشٍ كَبِيرٍ تَحْتَ قِيَادَةِ القَائدِ (رُستمَ بنِ الفرخزاد) لِيُوَاجِهَ تلكَ الفُلُولِ الزَّاحِفةِ





بِلاَ هَوادَةٍ نَحْوَ الْمَمْلَكةِ الفَارِسيَّةِ .

وَعِندَ ذَلِكَ أُعِدَّ وَفْدٌ مِن الْمُسْلِمينَ مَثَّلَهُ كُلٌّ

مِن (النعمانِ بنِ مَقْرِن) و (فرات بن حَيَّان)

وآخرون ، وذهبَ هَذا الْوَفْدُ لِمُقَابَلةِ (يزدجرد)

فلما مَثَلُوا بين يَدَيْه دَعَوهُ للدُّخُولِ فى الإسلامِ ،

أو دَفْعِ الْجِزيةِ المفروضةِ عَلى مَنْ لايُسلمُ .

فَهبَّ (يزدجرد) واقِفًا وقَالَ :

- ليسَ لكُمْ عندى شيْءٌ ، اخرجُوا وإلاَّ أمرتُ بقتْلكُمْ .

فَردَّ النُّعمانُ غاضبًا : إذَنْ إنَّها الحربُ ...

تمركزَتْ قواتُ الْمُسلمين عندَ القادسيَّةِ ، بيْنمَا اتَّجه إليها (رُستُم) على رأس جيشٍ بلغَ مائةً وعشرين ألفَ مُقَاتلٍ





عَـلاَوةً عَلَى ثَلاثَة وثَلاثِينَ فِـيـلاً مِنْ أَقْـوى الفِـيَلةِ

الَّتى استخدَمَهَا الفُرسُ فِى مَعارِكِهمْ ، وتَقَدمتْ

الفِـيَلَةُ الجيشَ حتَّى الطَّرفِ الآخَـرِ مِنْ النَّهـرِ فى

مواجَهَةِ القَادِسيَّةِ ، ثُمَّ أَرسَلَ (رُستُم) إلى (سعد

ابن أبى وقَّاص) يَطْلبُ مِنْهُ عُبورَ النَّهرِ أو يَعْبُر هو

إلِيه ، فاخْتارَ (سَعدُ بنُ أَبى وقاصٍ) الثَّانيةَ ،

وانتَظرَ قُدومَ عَدُوِّه إليه .



وعِنْدَمَـا جَـاءَ اللَّيْلُ وأَقـبلَ الظَّلامُ الدَّاكِنُ أمَـرَ (رُستُم) رِجَالَه لِيُقِيموا جِسْرًا عَلَى النَّهرِ يَصنَعونَهُ مِنَ التُّرابِ والأحْجَارِ ، بِالإضَافَةِ إلى كلِّ مايُمْكِنُ أنْ يُقَابِلَهُمْ مِنْ مَوادٍّ طَبِيعيةٍ ، عَلاوةً عَلَى مايَسْتَغْنونَ عَنْهُ مِنْ مَلابِسَ وأغْطِيةٍ .

وَمَعَ مَطْلَعِ الفَجْرِ عَبرتْ قواتُ الفُرسِ النَّهرَ .. الفِيلَةُ في الوسطِ مُتقدمةٌ ومِنْ خَلفِهـا الجنودُ

بأسلحتِهِمْ الْمُتعدّدَةِ الأشكالِ والأنْوَاعِ ، وعَلَى الجانبينِ خيْلٌ كثيرةٌ تحْمِلُ عَلَى جانبيْهَا صَناديقَ الْعَتَادِ .

وأعلنَ (سعْدٌ) صيحةَ الْحرب الأُولى «اللهُ أكْبَرُ» والثَّانيةَ «اللهُ أكْبَرُ» والثَّالثةَ والرَّابعةَ ،

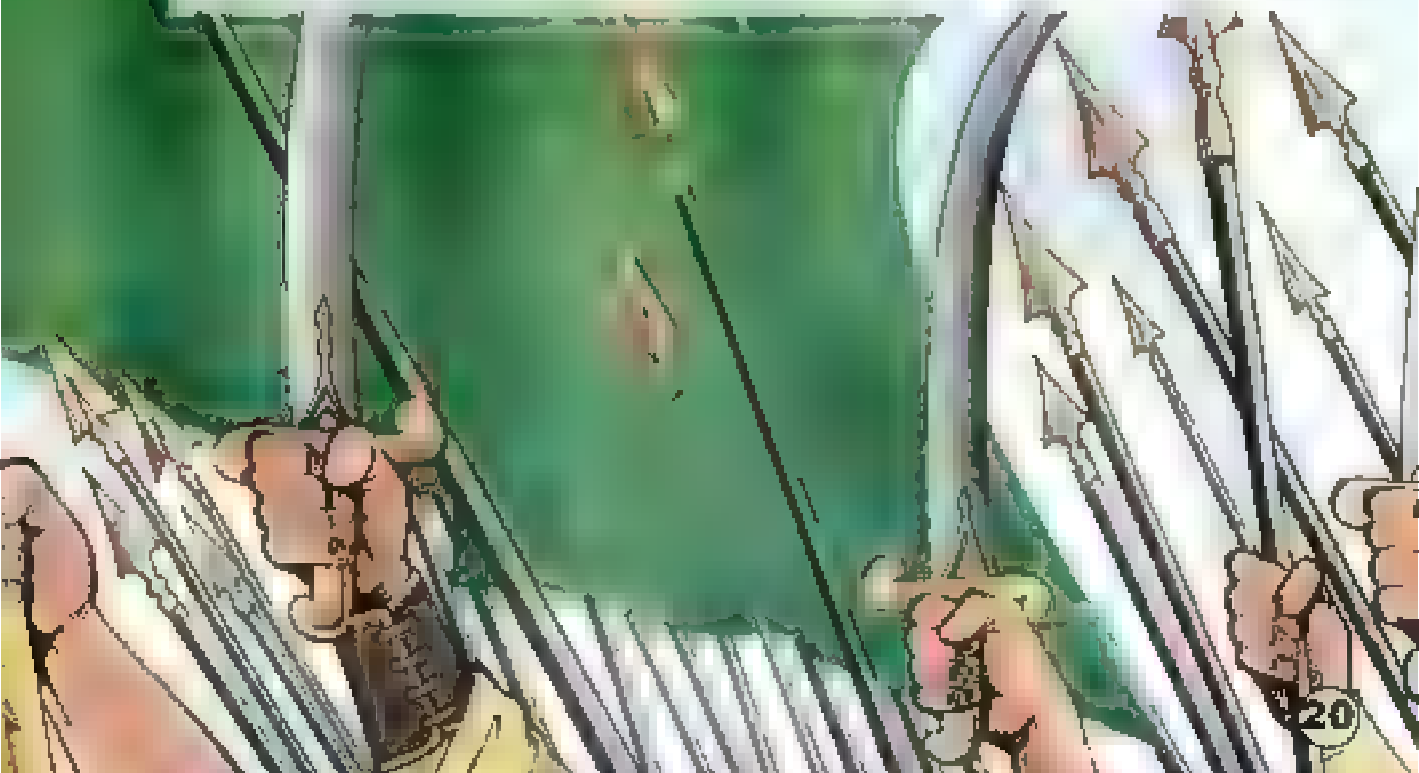




فَإذَا بالْمُسلمينَ يَخُوضونَ غِمَار الْحَرب ويُقاتِلون بِبَسالة مُنْقَطِعَة النَّظِيرِ ، بَلْ ويأْسِرونَ واحدًا مِنْ كِبَارِ قَادَةِ الفُرسِ هو (الهُرمُزُ) .

إلاَّ أَنَّ الفِيَلةَ هَاجَمَت الفُرسَانَ العَربَ وخُيُولَهمْ فَنَشَرَت الذُّعْرَ بَينَهُمْ إلى حَدٍّ كَبير .

وَبَدَأَ (سَعْد) يدْرُسُ نِقَاطَ الضَّعْفِ فى الفِيَلةِ ، فَعَرفَ أَنَّ أَكْبَرَ نُقطَةِ ضَعْفٍ فى الفِيلِ هى عَيْنَيْه





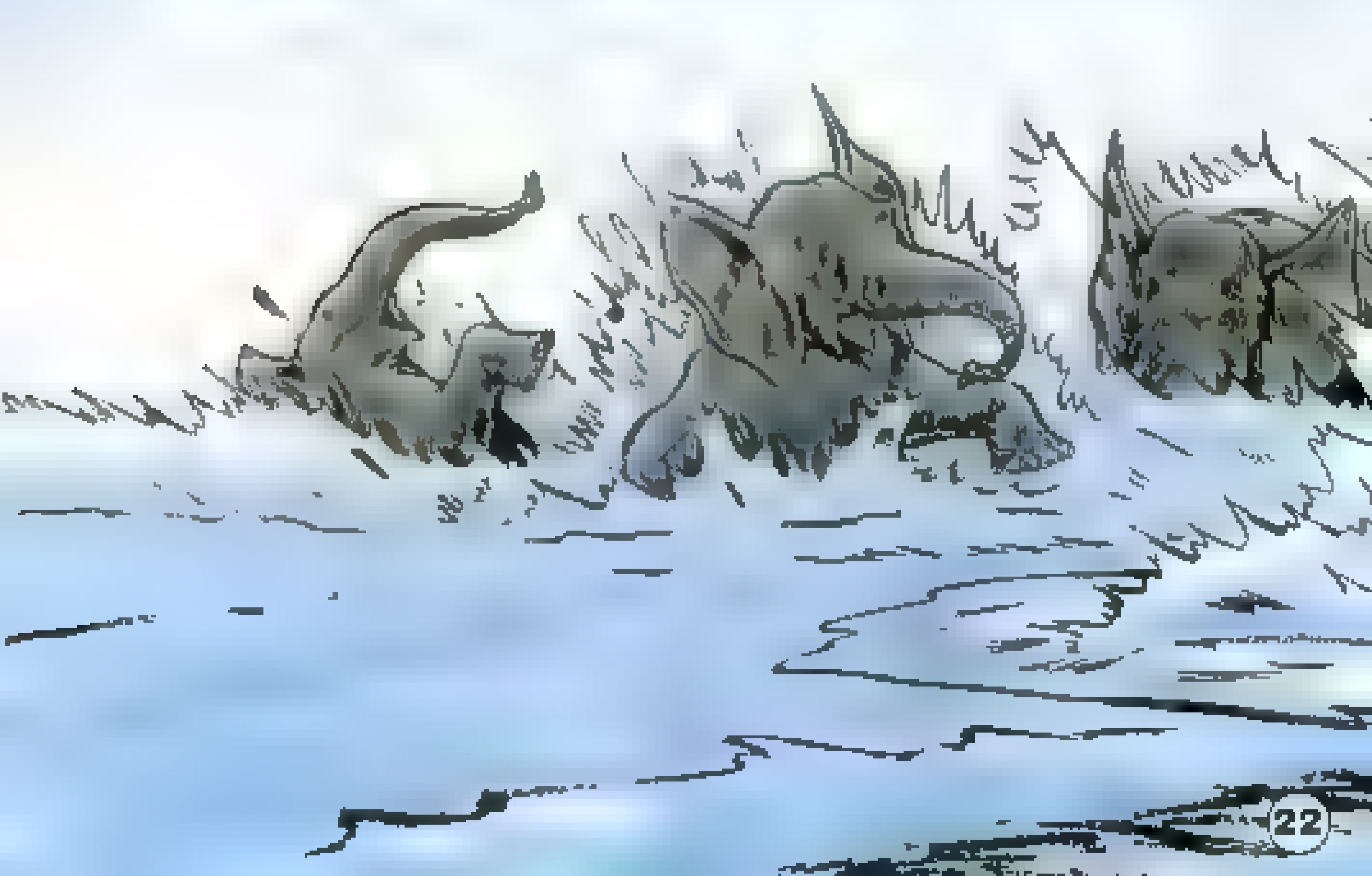
لو أصابَها أذَى فإنَّهُ يَفْقِدُ صَوابَه أو يهْرَبُ . كَذَلِكَ خرطُومَهُ ، إذا أصَابَهُ شيْءٌ تَحدُثُ نَفْسُ النّتيجَةِ .

فَركَّزَ القُوَّادُ عَلَى ضَرْبِ نِقَاطِ الضَّعْفِ فِى الفِيَلةِ ، كَمَا ضَاعَفُوا تَركِيزَهُمْ عَلَى فِيلٍ أَبيضَ ضَخْمٍ جِدًا كَانَ يَقُودُ الفِيَلَةَ جَمِيعًا .

ثُمَّ رَكِبَ (القعقاع) فَرَسَهُ وامتَشَقَ رُمْحَهُ ، واتَّجَهَ مُسرِعًا نَاحِيَةَ الفِيلِ الأبيضِ .

فَصوَّبَ الرُّمْحَ نَاحيـة عَيْنِ الفيـلِ اليُمْنى ، بينما فَارِسٌ عَربِيٌّ آخرُ هو (عاصمُ بنُ عمْرو) كانَ يُصوِّبُ رُمْحَهُ نَاحِيةَ العَيْنِ اليُسْرى .

وفى حَـركـةِ رَجُلٍ واحـدٍ انطلق الرُّمحـانِ نَحْـوَ عَيْنَيِ الفيـلِ الأبيضِ فأصَابَتْهـمـا إصـابةً شَديدَةً ومُباشِرةً ، مِمَّا جَعَلهُ يَتراجَعُ مُسْرِعًا ويَطْرَحُ رَاكِبهُ





أَرضًا ، ثُمَّ يَصُولُ وَيَجُولُ وَسْطَ عَسْكَرِ الفُرسِ عَلَى غيرِ هُدًى ، فَيَدُوسُ بِقدَمَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ يُقَابِلهُ بِلا أيِّ تَمْيِيزٍ أو تَحْدِيد لِهَدَف ، كُلُّ هَذَا وهو يَصِيحُ مِنَ الأَلَمِ .

وأخيرًا قَفَزَ إلى النَّهْرِ عَلَّهُ يستطيعُ الهُروبَ مِن الْمَعْرَكَةِ أو يُضَمِّد جِرَاحهُ مِمَّا أَصَابَهُ ، فَمَا كَانَ مِنْ بَاقي الفِيَلَةِ إلاَّ أَنْ قَفَزتْ كُلُّها خَلْفَهُ .





وبَعْدَ رَحِيلِ الفِيلَةِ ، والَّتى كَانَتْ عِندَ الفُرسِ بِمَثابَةِ سِلاحِ الْمُدَرَّعَاتِ فى الْجُيوشِ الحدِيثَةِ ، حَدَثَ تَصَدُّعٌ كَبيرٌ فى صُفوفِ الْجَيْشِ الْفَارسِىِّ وَأَدْرَكَ جُنْدُ الْفُرْسِ أَنَّهُمْ مَهْزومونَ لاَ مَحالةَ أَمَامَ قُوَّةِ وَصَلاَبةِ الْجُنْدِىِّ الْمُسْلمِ الْذى يُحَارِبُ مِنْ أَجْلِ قَضيةٍ ورِسالةٍ مُقَدَّسَةٍ يَهَبُ حَيَاتَهُ مِنْ أَجْلِهَا وينَالُ شَرَفَ الاستشهادِ فى سَبيلِها رَاضِيًا مُطْمَئِنًا .

واشتدَّ القتالُ المتلاحمُ ليصلَ إلى ذِروتِه ، وتَرْجَحُ كَفَّةُ الْمُسلمِينَ رُويدًا رُويدًا ، وتَتَهَاوَى الْمئاتُ مِنْ جُنْدِ الفُرسِ تَحْتَ سَنَابِك خُيولِ الْمُسْلمين ، بينما يستسْلِمُ الْمِئاتُ أيضًا ، كما يَهْرِبُ آخرون .

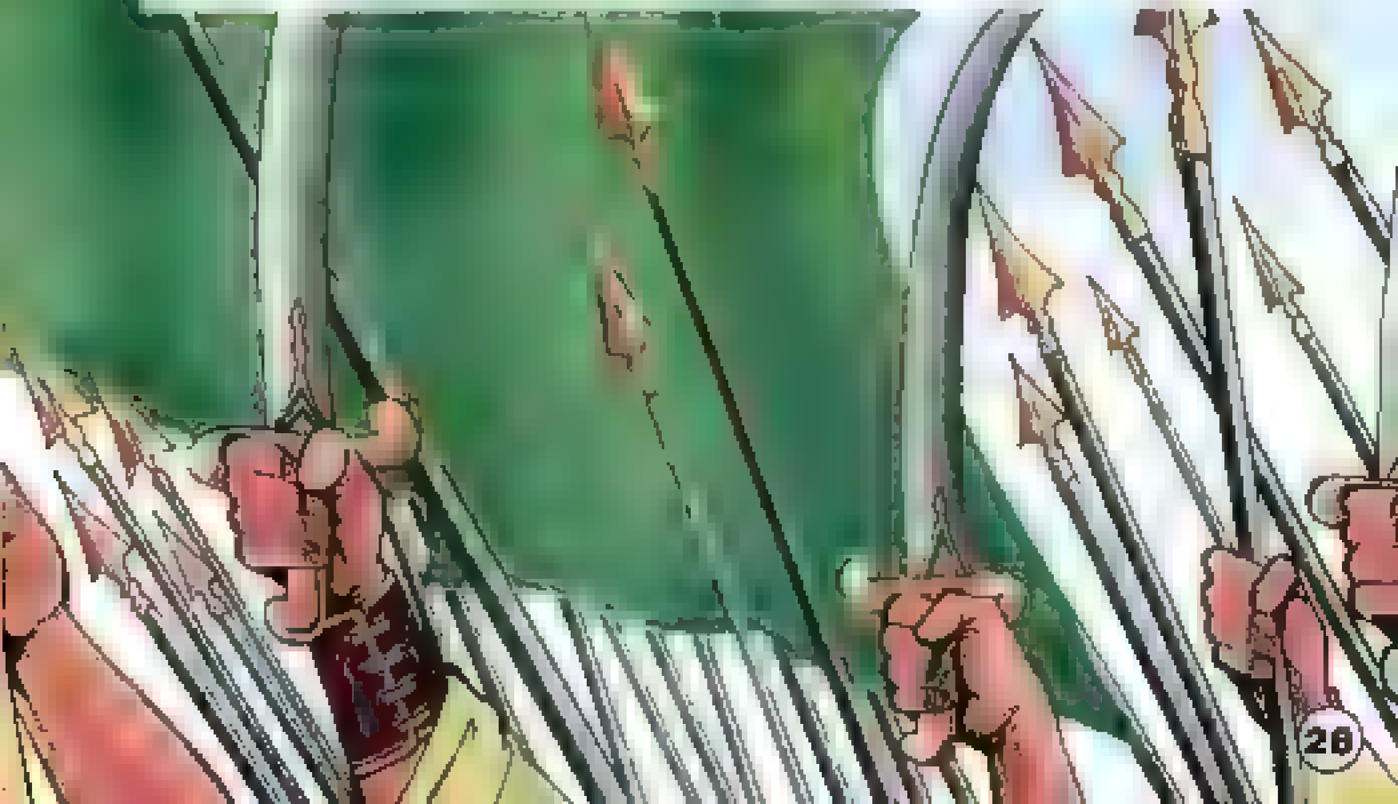
ومنْ أشهرِ الهاربِينَ كان (رستُم) القائدُ الفَارسىُّ الكَبيرُ الَّذى كلَّفهُ (يزدجرد) بقيادةِ الْجُيوشِ .





لَقدْ فرَّ هَذا القَائدُ عِنْدَما اكتشفَ ضَعْفَ مَوْقفِه ومَوْقِفِ جُنودِه ، وعِندَما تَأكَّدَ مِنْ هَزِيمَتِهِ خَافَ أَنْ يَقعَ فِي الأَسْرِ ، فَأَخَذَ يَجْرِي بِكُلِّ قُوَّتِه إلى أن وَصلَ النَّهرَ فَألْقَى بِنَفْسِه فيه ، لَكِنَّ الفَارسَ العَرِبِيَّ (هِلالَ بنَ عَلقَمةَ) كَانَ له بالْمِرصاد حَيثُ لَحِقَ بِه وَضَربه بِسيفِه وَقَتلَه ، وخَرجَ صَائحًا :

لَقدْ قَتَلْتُ (رُسْتُم) .. لَقَدْ قَتلتُ (رُسْتُم) .





وَبَعْدَ مَقْتَلِ قَائِدِهِمْ انْهَارَ جُنْدُ الفُرسِ ، وقَرَّروا العَودةَ إلى عُبورِ النَّهرِ مِنْ حَيثُ أَتَوْا مَرةً ثَانِيةً .

إلاَّ أَنَّ النَّهرَ كَانَ ضِدَّهُمْ هو الآخر هَذهِ الْمَرَّةِ فانْهَارَ الْجِسْرُ التُّرابيُّ الَّذى كَانَوا قَدْ أَقامُوه وغَرِقَ حوالى ثَلاثينَ ألفًا مِنْ جُنْدِ الفُرسِ .

وبِهَذهِ النِّهَايَةِ حَقَّقَ الْمُسْلمونَ نَصْرًا كَبِيرًا ، وتَعقَّبوا الفُرسَ حتَّى دِيارِهِمْ ، فَأَسَروا مِنْهم الآلاف ،

كَمَا أَخْضَعُوا إيوَانَ كِسْرَى لِرَايَةِ الإسْلامِ .

وَقـدْ كَـانَ هَذَا الفَـتْحُ مِنْ أَكْـبَـرِ الفُـتـوحَـاتِ الإسلامِيَّةِ ، ثَبَّتَتْ بَعْدَهُ الدَّعوةُ ، وَأَخذتْ مَكَانَها فى الْمَشْـرِقِ والْمَـغْـرِبِ ، فَـزَوالُ مُلْكِ كِسْرى وانهيارُ دَوْلَته





لَمْ يَكُنْ بِالشَّىْءِ السَّهْلِ الَّذى يَتَصوَّرُهُ العَالَمُ أو يَتوقَّعُ حُدُوثَهُ ، وبُنَاءً عَليه كَانَ انتصارُ الإسلامِ فى القَادِسيَّةِ انْتِصَارًا للمُسْلِمِينَ فى كُلِّ مَكَانٍ .

(تمت)

رقم الإيداع : [illegible]

الترقيم الدولى : [illegible]